فقال شماس : وما ذلك

فاجاب الحكيم : الاشياء ثلاثة . نفاع دفاع . ودفاع غير نفاع . وضرار غير نفاع ولا دفاع

قال شماس : وما هو ذلك الضرار غير النفاع ولا الدفاع

فاجاب الحكيم : ما اتى بهِ الافراط من الدفاع غير النفاع . صار ضراراً لا ينفع ولا يدفع

الشيخ امين
ظاهر خيرالله

ستأتي البقية

رؤيا صادقة

امنية عراقية

نمت ليلة فحلمت اني في حديقة غناء وروضة فيحاء فيها اصناف الشجر والثمر والزهر والطير فأخذت اسرح الطرف في جوانبها الاربعة متمتعاً بما تشتهيهِ الانفس وتلذ بهِ الاعين ثم مشيت في طرقها المرشوشة بالماء العطر فرأيت كرسياً طويلاً فاستلقيت عليهِ مفكراً فيما مر علي فقلت : ما اسعدني اليوم بين هذه الاشجار النضرة والورود العطرة والطيور المغردة والمياه الجارية فما اطيب البقاء في حديقة ليس فيها من يزور او يغتاب ولا من يتجسس فينتقد ظلماً وعدواناً ثم سكت وقلت في نفسي : ما اهنأ العيش في جنينة ليس فيها من ينغشك ويضحك منك ولا من يضرك بمفترياتهِ او يقلقك بنمائمهِ تتمتع بهذه المناظر والالوان ولا تأسف على دنيا خدمتها فاهانتك وعمرتها فهدمتك وطلبتها فردتك وتعبت لاجلها فاهلكتك دعها ومن يسكنها في ضلالهم يعمهون وانسهم وطربهم يلتهون وبكسلهم وبطالتهم يشتغلون . يعيشون كما تعيش البهائم ويموتون كما تموت . يفسرون الحياة بالاكل والشرب والتناسل فالهات ولا يأسفون على وقت ثمين مر بهم . ينتظرون الموت بالجدال والكفاح والمزامير والطبول ولا يحاذرون على عمر يضيع بالقيل والقال . دع القلائل لاربابها والجدال لاصحابهِ وانس معترك الحياة

ثم مشيت بين الاشجار فرأيت شاباً جميلاً تظهر عليهِ دلائل الغنى والترف يتمايل في مشيتهِ ويتلاعب بعصا كانت بيدهِ ولكن ثيابهُ لم تكن تدل على انهُ

من اهل هذه الايام. لانهُ كان يلبس قلنسوة فارسية وطيلساناً مزركشاً وسراويلاً غالي الثمن وفوق كل ذلك دراعة سوداء. فدنوت منهُ وسلمت عليهِ فاجابني بجواب يدل على الكبرياء حقيقة والتواضع ظاهراً ومدّ الي يده تكرماً فقبضت على يد فارة ناعمة تدل على ان صاحبها لم يمش الاّ في الرخاء والهناء . ثم تفضل عليّ فسألني عن صحتي وحالي وعن الامور التي سببت مجيئي الى هذه الحديقة فقلت لهُ : « لم ازل افكر في ذلك . . . » فلم يلحّ عليّ وانتقل الى موضوع آخر ثم دار بيننا الحديث في مواضيع مختلفة فرأيتهُ يكرر كلمات طالما سمعناها من اولاد الاغنياء . وهي : ابي فرسي قصري جواري خدمي كتبي لباسي. فقلت لا فرق بين العصرين

ثم سألني هل انا محتاج الى الراحة وهل اريد الجلوس في غرفة تشرف على الحديقة من جهة وعلى نهر يخترق المدينة من اخرى قلت نعم. ولما استقرّ بنا الجلوس وشربنا ما قدّم لنا من المرطبات سألتهُ عن اسم صاحب هذه الحديقة الزاهرة فقال وعلى وجههِ ابتسامة الفخر والعزة : « هذه احدى حدائق ابي وليست احسنها . » فقلت : « ادامها الله لكم ومتعكم بها . » فضحك مستغرباً وقال : « انها لا تليق بكلّ ذلك » فسكتّ وادرت وجهي شطر النهر فرأيت القوارب تخترقهُ وفيها الناس بازياء غريبة لا تشابه ازياء العصر الحالي فقلت : « ما اسم هذه المدينة حفظك الله » فاستغرب ذلك مني وقال : « ألا تدري ما اسمها وانت تعيش فيها » فقلت : « لا ! » قال : « لنصعد الى السطح فاريك المدينة باجمعها لعلك تعرفها بعدئذٍ » فصعد الى سطح مالٍ مفروش بالطابق فرأينا تحتنا مدينة عامرة يخترقها نهر عليهِ ثلاثة جسور وهنالك المآذن العالية والبنايات الفخمة والقصور الشاهقة تكاد تناطح السماء

رأيت في الضفة اليسرى من النهر انهاراً صغاراً تجري اليهِ فقلت لصاحبي : « ما اسماء هذه الانهار ؟ » فقال : « هي من الشمال الى الجنوب : نهر الفضل ونهر جعفر ونهر موسى ونهر المعلى . » ثم رأيت في الضفة اليمنى نهراً سماهُ صاحبي : نهر الصراة وهو ينقسم الى فرعين يدفع الاول بقرب الجسر الاعلى والثاني بقرب الجسر الاسفل . وكذلك رأيت نهراً آخر اسمهُ نهر عيسى يتشعب شعباً تسمى باسماء مختلفة هي من الشمال الى الجنوب : نهر البزازين ونهر الدجاج ونهر طابق ونهر الكلاب. وقد اخذ صاحبي يسرد اسماء هذه الانهر ويدلني على

مواقعها ولا ينسى الاشارة الى قصور والده وحدائقه فقد رأيتهُ يدلني على بعض المواقع فيقول : وهذا ايضاً قصر ابي . وذلك البيت ايضاً من بيوت والدي . او ترى ذلك البستان انهُ ملك ابي فقلت لا فرق بين العصرين

ثم ادهشتني عمارة القصور التي رأيتها فسألتهُ عن اسمائها فقال : « اما القصور التي على الشاطىء الايسر من النهر فهي من الشمال الى الجنوب : قصر موسى وقصر الفردوس وقصر التاج (١) وقصر جعفر البرمكي — وهذه واقعة على النهر في داخل المدينة : قصر المعتصم وقصر الامين . وعلى الشاطىء الايمن : قصر الحريم وقصر الخلد ودار القرار (قصر زبيدة) ودار عيسى — وفي الداخل : قصر زبيدة ودار الرقيق وغيرها . فعرفت اذ ذاك أني في بغداد العباسية ولكني لم اظهر لهُ اني منها حتى يتم حديثهُ باجمعه . . . ثم قلت لهُ : « وما هذه البناية المستديرة امامي » فقال : « هذه مدينة المنصور التي بناها لنفسهِ وأتمها سنة ١٤٦ هـ (اي ٧٦٣ م) واحاطها بسورين وفتح لها اربعة ابواب متقابلة سمّى الباب الذي ينظر الى الجسر المتوسط بباب خراسان والباب الذي يقابلهُ بباب الكوفة والباب الذي يكون نحو الجنوب بباب البصرة وما يقابلهُ بباب الشام . وقد بنى المنصور في وسط هذه المدينة قصرهُ المسمى بقصر الذهب او القبة الخضراء ومسجدهُ المسمى بجامع المنصور وغير ذلك من الابنية التي تعود الى دواوين الحكومة ومصالحها . وقد روى المؤرخون ان المنصور انما بنى القبة الخضراء ليحوّل اذهان الناس عن الكعبة اليها ولكني لا اكاد اصدق ذلك . وقد جعل المنصور حوالي مدينتهِ قطائع لحاشيتهِ ومواليهِ واتباعهِ . فهل عرفتَ هذه المدينة الآن . فقلت : « نعم هي بغداد عاصمة الخلافة العباسية التي ذاع ذكرها وشاع خبرها واتسع نطاقها وبلغت شأواً بعيداً من الرقيّ والتكمل فهل تعرف حضرتكم متى بلغت معظم عمارتها بعد بنائها » فقال : « بلغت بغداد معظم عمارتها في ايام المأمون حتى امتدت ابنيتها وبساتينها على بقعة قالوا ان مساحتها ٥٣٧٥٠ جريباً منها ٢٦٧٥٠ جريباً في الجانب الشرقي و٢٧٠٠٠ في الجانب

(١) يظن بعض المستشرقين ان قسماً من القصة الحالية التي كانت تسمى في عهد الاتراك (الطوبخانة) هي من بناء قصر التاج (راجع كتاب خلاصة تاريخ العراق لحضرة الاب انستاس ماري الكرملي صفحة ١٤٧)

الغربي (فتكون مساحة بغداد كلها ١٦٠٠ فدان مصري) — وهو شيء كثير كما لا يخفى . ولو قرأت تاريخ الخطيب البغدادي لرأيته يقول : « انها اربعون مدينة وان الحمامات بلغ عددها في ايام المأمون ٦٥٠٠٠ حمام » وقد ترى في هذا القول مبالغة الا انهُ يدل على كثرة العمران وسعة المدينة في تلك الايام . فهذه هي بغداد في ابان عزها وسطوتها وقد أراها اليوم كما يراها غيري سائرة الى الانحطاط والزوال — شأن كل موجود » فقلت في نفسي : « ماذا كان يقول لو رآها في هذه الايام »

ثم قلت لهُ : « اتعرف يا سيدي من اي البلاد انا » فقال : « لا والله وقد احب ان اعرف ذلك » فقلت لهُ « انا من اهل هذه المدينة ولكن بعد عشرة قرون ! » فقال وعلى ثغره ابتسامة العارف : « عجيب وكيف هي الآن » فذرفت عيناي دموعاً تحدرت على وجنتي ولم استطع اخفاء العبرات والزفرات . فقال « لماذا تبكي يا اخي ولم اسألك شيئاً يؤذيك » فقلت لهُ « ابكي يا مولاي على مجد سلف وعز زال ورقي تبدل بالانحطاط . ايه يا بغداد العزيزة ويا امّ المدائن ومجمع العلماء والشعراء كانت عناصل العلم تفرد على افنان مدارسك وانوار العرفان تتلألأ في معاهدك ومعالمك وكانت قصورك وربوعك تشهد على عظمتك . واهلك وشيمتك يدلان على فضلك وكرمك فاين تلك الدور والقصور واين ذلك الوقت وتلك العصور سامحك الله يا بغداد تركت اولادك في القرن العشرين قرن المدنية والنور قرن الحروب والفوز بالمأمول قرن الارتقاء والعروج تتأهين في ظلمات الفقر والجهل والبؤس والشقاء . ان بيوتك الآن لا تسع اهاليك وقد يتهالك عليها بنوك فاين سعتك السابقة وانك لتضرمين بنا ذرعاً الآن فاين عمارتك السالفة . وانت يا دجلة يا ناكرة المعروف تجرين امامي جرياً مطرداً كانك لا تبالين بما جرى فوقك وامامك من الحوادث والاهوال فقفي ولا تجري فان لنا معك حساباً يجب ان تؤدّيه قبل ان تصلي البحر . لقد رأيت مدنية البابليين ثم سكتّ على انقراضهم وشاهدت عظمة العباسيين فلم تكترثي لما جرى عليهم . وها انت تضحكين جذلا على ما المّ بنا من الجهل والفقر والبلاء . فقفي والصتي لتسمعي انين عشرة قرون . فقفي واسمعي صراخ الف عام . فقفي واسمعي معاول الشقاق والنزاع تلعب في عاصمتك . فقفي وانظري نيران الفتن تشبّ في معالم بلدتك . فقفي

واسمعي خرير انهار الدماء التي تنحدر اليك . قفي واسمعي عويل الاطفال الواصل اليك . قفي وانظري الكتب التي تلقى فيك . نعم قفي ولا تجري قفي وتأملي قفي وتذكري الماضي والحاضر ايه يا دجلة يا ناكرة المعروف . اتذكرين انك طالما حملت زوارق الانس والطرب وسفن الحرب والطعان وطالما فاضت عيونك بدموع الفرح والسرور فسقت ارضاً خصبة والبستها حللاً خضراء . اتذكرين انك كنت تخترقين مدينة يقف الملوك هيبة اذا ذكر اسم ملكها وتحنى الرؤوس اجلالاً اذا جاء ذكر علمائها وترتعد المفاصل خشية اذا ذكر جيشها وقوادها . أتذكرين انك كنت تهزئين بالطونة والتايمز والسين وانك كنت لا ترين النيل لك مثيلاً فاين ذهبت سطوتك وعظمتك وكيف تغير سلطانك وكبرياؤك

فيا ايها المستقبل المجهول ارفع عني الستار الاسود الذي اختفيت وراءه لأنظر اليك فاني في حاجة الى ما في خزائنك العديدة من الاسرار . سمعنا بالماضي وان لم نره وها نحن اولاء نشاهد الحاضر ولكن من يعرفنا بك ويطلعنا عليك ؟ أأنت مثل الماضي . ام انت تشابه الحاضر ام لا تشبه الاثنين . قل لي بحقك ماذا حفظت لبغداد من الاحزان والافراح وماذا سيعقب هذه الفترة القاسية من السعادة والشقاء . افتشتعل فحمة ليلنا فيتنفس صبحنا . ام سنبقى تحت سيطرة الجهل قائلين انفسنا بانفسنا » فقطع كلامي — وكان ينصت اليّ بصبر وجلد — قائلاً :

« قد علمت بكل ما جرى على هذه المدينة من اصدقائي المنجمين والسيمياويين » فقلت لهُ ودموعي لم تنقطع بعد « ادعو لي واحداً منهم الآن فاكون لك من الشاكرين » . فنادى خادماً وامرهُ بدعوة احد الشيوخ الماهرين في علم السيمياء فحضر بعد بضع دقائق بعمامة كبيرة ولحية طويلة وملامح تدلُّ على خبث ورياء وخفة . فسلّم وجلس فقال لهُ صاحبي : « ان صديقي هذا (واشار اليّ) يود ان تدلهُ بعلمك وقدرتك على اجوبة بعض اسئلته التي سيوردها عليك » . فقال :

« لا حاجة الى ايرادها فقد عرفتها قبل ان ينطق بها . ذلك مما علمنيه ربي . وهذا هو الجواب ان اراد » فقلت لهُ « شكراً لك سيدي » ثم قال : « اتريد ان تسمع جوابك بأذنيك ام تراهُ بعينيك » فقلت « بعينيّ واذنيّ ان امكن ذلك » . فنهض وقادني الى بقعة خالية بقرب تلك الحديقة فوُضع امامي حالاً ستار مزركش فيهِ اشكال غير مفهومة وحروف مقطعة ورموز مكتومة واسرار

قدسية فقلت « ما هذا » فقال « سأرفعهُ عنك واريك الجواب بعينيك ثم اسمعك اياهُ باذنيك » فصاح « ارفع الستار يا غلام » . ولم يكن هناك احد فرُفع الستار وظهر وراءهُ شيء كاد يذهلني ويأخذ بعقلي . فقلت باستغراب وتعجب « ماذا ارى وما هذه يا ترى . ارى قبة عالية من الذهب الابريز مرصّعة بالجواهر الثمينة قائمة على قوائم من فضة مذهبة يصعد اليها بسلّم من الآبنوس منقوش بالصدف والعاج واقف على اسطوانتين من المرمر المرصع بالدرّ والياقوت أرى اناساً مختلفي الشكل والزي يصعدون على السلّم ليصلوا الى تلك القبة النادرة المثال وهم متفاوتون في الارتقاء على ذلك السلّم — ولم يصل منهم احد حتى الآن — وكان امام اسفل درجة منهُ غادة تتلفت يميناً وشمالاً كانها لا تبصر وتنادي من يقودها ويصعدها على هذا السلم العظيم فلا تجد غير صدى ندائها يتراجع الى اذنيها ثم صرختُ : « ما هذه العجائب ياشيخ وماذا ارى الآن فوق الثرى » فقال « اسمع يا ولدي ان القبة العجيبة التي تراها هي قبة الارتقاء او غاية الكمال التي يسعى اليها كل مخلوق فلم يصلها منهم احد حتى الآن . وهؤلاء الناس هم قبائل الارض وكلهم يود الوصول اليها من هذا السلّم الذي تراهُ . وهو واقف على اسطوانتين هما التربية والمال » . ثم سألتهُ عن الفتاة التي كانت تتلفت وتستغيث فقال : « ادنُ منها بنفسك واسألها » فدنوت منها فاذا هي في غاية الحسن واللطف الاّ انها كانت مكفوفة البصر رثة الثياب فلما سمعت وقع قدميَّ بقربها اجفلت ونادت بصوت يستجلب الرحمة والشفقة والاحسان « يا رجلاً خذ بيدي » ثم سكتت ونادت ثانية : « رحماك يا رجلاً خذ بيدي » ثم سكتت ونادت ثالثة : « مكفوفة ضعيفة تائهة يا رجلاً خذ بيدي » فتقدمت اليها وحاولت اذ اقودها فاذا هي لا تقدر على المشي ثم اردت حملها على ذراعي فلم استطع فقلت لها « أليس لك اهل يساعدونك على الصعود » فقالت « اواه لا تسل ان لي اولاداً عاقين قد سخط الله عليهم فتركهم في ضلالهم يعمهون » فقلت « ومن هم اولادك يا ترى » فصاحت بي نافرةً « اف لك أأنت احدهم وتسأل عنهم » فاستغربت ذلك في اول الامر ثم تذكرت انها (العراق) فصرخت بصوت اعترّت لهُ ارجاء الحديقة قائلاً « الى أمكم ايها العراقيون » وانتبهت من الصوت

بغداد عطاء امين